﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۚ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ [الحديد: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد تمييزِهِ نورَ المؤمنين أتبعه ببيانِ حِرمانِ المنافقين

لمّا بيّن ﷻ في الآية السّابقة مشهدَ المؤمنين في يوم القيامة، وأنّ النّور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وتتلقّاهم الملائكةُ بالبِشارة بالجنّات؛ أتبع ذلك ببيان مشهد المنافقين وحِرمانهم من النّور الذي طلبوه من المؤمنين بقولهم: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾. ومنها: لمّا ذكر المولى سبحانه في الآية السّابقة مشهدَ إشراقِ النّورِ في وجوه المؤمنين، وسعيهِ بين أيديهم وأيمانهم، جزاءً لإيمانٍ خالصٍ وعملٍ صالحٍ؛ أعقبَه بمشهدٍ مُضادٍّ يُجلّي سوءَ مآلِ مَن نافق في الدّنيا، فذكر حالَ المنافقين يومَ تبدَّو ظلماتُهم، ويُحرمون من قبس الهداية، فقال: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾، فصار ذلك اليومُ موضعَ مفاصلةٍ كاشفةٍ بين أهل الإيمان الصّادق، وأهلِ الادّعاء الزّائف، يُنادون أهلَ النّور: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾، يقولون ذلك عند رؤيتهمُ المؤمنينَ بروقًا خاطفة يُسْرَع بها إلى الجنّة، حيثُ النّعيم المُقيم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنظُرُونَا﴾: (نظر) أصلٌ صحيحٌ، ومنه نظرُ العين ونظر القلب، ويكون منه الانتظار، فنظرته بمعنى: انتظرته، والنّظر تأمّل

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 452.

الشّيء بالعين وبغير العين، ثمّ يُستعار ويتّسع فيه، فيُقال: نظرتُ إلى الشّيء أنظر إليه، إذا عاينته، ويقولون: نظرته؛ أيّ: انتظرته، وسُمّي الإمهالُ إنظارًا؛ لأنّه ينظر إلى الوقت الذي يأتي فيه[1]، وضدّه التّعجيل، والإنظار والنّظرة: التّأخير والإنساء والإمهال[2]، والاستنظار: طلبُ الإنظار، واستنظر المُشتري فلانًا: سألَه الإنظار، والتّنظّر: توقّع الشّيء[3]. والمقصود بالفعل ﴿ٱنظُرُونَا﴾ في الآية يعني: ارقبونا وانتظرونا كي نأخذ من نوركم فنمضي معكم[4].

2) ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾: (قبس) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على صفةٍ من صفاتِ النّارِ، ثمّ يُستعار، من ذلك القبس: شعلة النّار[5]. فتقتبسها؛ أيّ: تأخذ من أكثر تلك النّار، ويستعمل الاقتباس للعِلم مَجازًا، وهو العلم والتّعليم والإفادة، والقَبَس هو ما يكون في متناول يدك من شعلة النّار، والاقتباس هو طلب ذلك ممّن عنده النّار، والقبس أيضًا الجذوة من النّار، وهي التي تكون في طرف العود، ومعنى القبس المِحوريّ: "تحصيلٌ مباشرٌ لمادّة حادّة من أصلٍ لها، كأخْذ الشّعلة من نارٍ عظيمةٍ"[6]. ومعنى ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾؛ أيّ: نأخذ ونستصبح، ونفيد ممّا عندكم من النّور[7].

3) ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾: (لمس) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تطلّب شيءٍ ومسيسه أيضًا. تقول: تلمّستُ الشّيء، إذا تطلّبتَه بيدك. قال أبو بكر بن دُريد: اللّمس أصله باليد ليُعرفَ مسُّ الشّيء، ثمّ كثُر ذلك حتّى صار كلُّ طالبٍ مُلتمسًا[8]. ويمكن أن يكون اللّمس معرفةَ الشّيء من غير أن يحصل مَسُّ الجوهر، أمّا الالتماس فهو البغية والطّلب، ومنه حديث الرّسول ﷺ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللّٰهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ»[9]؛ أيّ: يطلب فيه علمًا. ومعنى: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾؛ أي: ارجعوا فاطلبوا النّور حيثُ أعطينا النّور هناك[10].

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(2) الدّانيّ، الفرق بين الضّاد والظّاء، ص: 51.
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نظر).
(4) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 4/ 239.
(5) الخليل، العين، وابن دُريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قبس).
(6) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قبس).
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 32/ 181.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمس).
(9) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم: (2699).
(10) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 405.

4) ﴿بِسُورٍ﴾: (سور) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على عُلوٍّ وارتفاعٍ[1]. ومعنى السّور: حائطُ المدينة، ويكون عاليًا مُشرفًا، ومنه المِسورة مكان يُجلس عليه، وسُمّي كذلك لعُلوّه وارتفاعه، وهو حقيقٌ به، ومنه تسوّرت السّور إذا تسلّقته[2]. والسّور في الآية الكريمة بمعنى الحاجب، "وليس يعني به ما يحجب البصر، وإنّما يعني به ما يمنع من وصول لذّة الجنّة إلى أهل النّار، وأذيةِ أهل النّار إلى أهل الجنّة"[3]، ويجوز أن يكون معناه حجابُ الأعراف، أو هو سور المسجد الشّرقي في بيت المقدس[4].

5) ﴿بَابٌ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرّدٌ، جذره اللّغويّ (بوب) ألفه منقلبة عن واو، وآية ذلك أنّه يجمع على أبواب، والباب معروف، ومنه البوّاب بمعنى الحاجب، ويُقال لمدخلِ الشّيء وطاقِهِ الذي يُدخل منه: بابُهُ[5]. والمعنى المِحوريّ للباب: "انفتاحٌ مع اتّصالٍ دائم، كما أنّ الباب فتحةٌ توصِلُ إلى ما كان محجوبًا، وهي تُتيح الاتّصال دائمًا، وكلّ ما جاء من استعمالات هذا التّركيب في القرآن الكريم هو الباب المَدخل أو المَنفذ إلى المكان"[6]. ومعنى ﴿بَابٌ﴾ في الآية الكريمة هو الباب المعهود، أو هو الطّريق[7].

6) ﴿بَاطِنُهُۥ﴾: (بطن) أصلٌ واحدٌ لا يكاد يخلف، وهو إنسيُّ الشّيء والمُقبِلُ منه، فالبطن خِلاف الظَّهر[8]. ويُطلَق على ما غمُض من الأرض، كما يُقال: "وباطن الأمر: دخْلَتُه. خلافُ ظاهره"، ويوصف بالباطن ما خفيَ عن الحواسّ، واحتاج إلى تفسير، وجميع المواضع التي وردت في القرآن الكريم تحمل معنى الخفاء والاستتار[9].

7) ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾: (ظهر) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على قوّةٍ وبُروزٍ، من ذلك: ظهر الشّيء

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سور).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (سور).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: 1/ 373.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 475.
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بوب).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بوب).
(7) أبو حفص النّسفيّ، التيسير في التفسير: 14/ 295.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطن).
(9) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات، والزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بطن).

يظهر ظهورًا فهو ظاهرٌ، إذا انكشف وبرَزَ[1]. ومصدره: الظّهور، وهو البدوّ خلاف البطن، وهو ضدّ الاستتار، والظّهور هو عدم الخفاء، فيمكن الوقوف عليه ومعرفته لبروزه، وسُمّيت الظّهيرة كذلك لوضوحها[2]، والمعنى المِحوريّ: البروزُ من أثناءٍ أو باطنٍ إلى سطحٍ، مع شدَّةٍ وغِلَظٍ أو قوَّةٍ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نـورٌ لا يُقتبسُ، وسورٌ لا يُخترقُ

في ذلك الموقف الفاصل يصرخ المنافقون والمنافقات للمؤمنين وللمؤمنات: "انتظرونا، أمهلونا لحظةً نلحق بكم، ونستضيء من نوركم الذي يسعى أمامكم وبأيمانكم"؛ فيُجابون بجوابٍ قاطعٍ: ارجعوا من حيثُ أتيتم، فالتمسوا النّور من خلفكم، فلن يوهَب لكم من نورنا شيءٌ، وهنا يُضربُ بينهم وبين المؤمنين بسورٍ عظيمٍ، هو الحاجز المنيف بين أهلِ النّعيم وأهلِ الجحيم، له بابٌ مخصوصٌ؛ داخلُه رحمةٌ تَفيضُ، ويُفضي إلى الجنّة، وخارجُه عذابٌ يُطوّق، ومآله إلى النّارِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

مَشهدُ المنافقين شـاهـدٌ عـلى عَـظَـمَـةِ فـوزِ المؤمنين

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ عمّا قبلَه[5]؛ لأنّه صلةٌ لما قبلَه، وبيانٌ له، والمعنى: ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، لا في أيّ وقتٍ كان، بل في اليوم الرّهيب الذي يُذْهَل فيه المنافقون والمنافقات، ويقولون مقالتَهم حَسْرةً وتلهُّفًا[6]، فذُكِر هذا اليومُ مشفوعًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (ظهر).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (ظهر).
(4) الواحديّ، الوجيز، ص: 1068.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 450.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 180.

بمشهدهم المُخزي تكميلًا لعَظَمَة الفوز. وممّا يُذْكَر في سِرِّ الفصل أنّ قولَه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدلٌ مُطابقٌ لقوله: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[1]؛ إذِ اليوم الواحد مشهودٌ، هو بعينه اليومُ المُعرَّف[2]، فُصِل ذِكْر المنافقين عنه تفصيلًا، ليُقابلَ النّورَ بالخِزْي، ويُبرزَ التّمايزَ الكامل بين أهل الإيمان وأهل النّفاق.

دلالة تكرار لفظ ﴿يَوْمَ﴾:

إبراز التّقابل بين حال المؤمنين وحال المنافقين

في إعادة ذِكْر (يوم) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بعد التّصريح بعِظم الفوز بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إيماءٌ بلاغيٌّ رفيعٌ، إذ يُعاد الزّمن ليَظهرَ التّقابلُ بين الحالَيْن: حالِ المؤمنين في غمرة الرّحمة والنّور، وحالِ المنافقين في غياهب الخِزي والنِّدامة، فكأنّما قيل: إنّ فوز المؤمنين لا يظهر جلالُه، ولا يتجلّى كمالُه إلّا يومَ يُفتَضحُ فيه المنافقون، ويُحرمون من النّور[3]؛ لأنّ بهاء الفوز يزداد تألّقًا حين يُقارن بخسارة الخَصْم، وسُموُّ المَرءِ يبلغ ذِروتَه يومَ انكسارِ مَن عاداه وخالفَه.

سِرُّ التّعبيرِ بالقولِ مادّةً وصيغةً:

رفعُ الصّوتِ وسيلةُ الاستنجادِ في لحظةِ الهَلَعِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفعل ﴿يَقُولُ﴾ دونَ غيرِه، لما في مادّته من دلالةٍ على التّلفُّظ الواضح، والمواجهةِ الصّريحة، وكأنّهم في لحظة الهَلَع واليأسِ لم يجدوا بُدًّا من رفع الصّوت بالرّجاء، فأتَوا بقول مُتجدّدٍ مستأنَفٍ، تُمليه الشّدائدُ، وتُخرجُه الأهوالُ[4]، وأيضًا للتّذكير بحالتهم الأولى؛ فهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. وجاء فعلُ القولِ مضارعًا لوصفِ مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة، حيثُ تعلو أصواتُ المُلاحاة، وتترامى التُّهَمُ، وتتقاذَفُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 475.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 381.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 261.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 273.

الشّناعاتُ[1]، في جَوٍّ يَعُجّ بالتّوتُّر والانكشاف، فجاء الفعلُ ليُجَسِّدَ التّلفّظَ الصّريحَ، والمواجهةَ المباشرةَ في لحظةٍ لا مواربةَ فيها.

سِرُّ الوصفِ بالنّفاق دونَ غيرِه في: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

تسمّيةٌ تفضحُ زَيْفَ الدّعوى وتَفُضّ الاشتراكَ الظّاهريَّ

اختيارُ وصفِ النّفاقِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ دونَ الكُفْرِ أو الفِسْقِ، إنّما هو لكونهم من أهل الدّعوى الظّاهرةِ، فهم شاركوا المؤمنين في الظّاهرِ وخالفوهم في الباطن؛ فجاء التّعبيرُ دقيقًا كاشفًا لحقيقتهم، سالبًا لنورِهم، جزاءً لنفاقِهم[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّةِ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

النّفاقُ صفةٌ راسخةٌ لا تنفكُّ عنهم

جاء التّعبيرُ بوصف النّفاق بالاسميّة دونَ الفعليّة، لأنّها تدلّ على الثّبوت والاستمرار؛ فهم المنافقون بأعيانهم، الرّاسخون في النّفاق، المقيمون على الشّقاق والمعاداةِ لأهل الحقّ، لا يَطرأ عليهم تحوّلٌ، ولا يعرفون توبةً، وكذلك المنافقات[3]، سواء بسواء في ثبات الوصف وشناعة الحال.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

عمومُ العذابِ لجنسِ أهلِ النّفاقِ

تدلّ الألفُ واللّام في وصفَي ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ على استغراقِ الجنسِ، لا لبيانِ بعضٍ منهم، فليس الحديثُ عن أفرادٍ بعينهم، بل عن كلّ مَنْ تَلبَّس بهذا الوصفِ عبرَ الزّمان؛ ليَعُمّ الحُكمُ ويستغرقَ كلَّ مَن رسخ في النّفاق، وتوسّدَ الشّقاقَ، رجالًا ونساءً، دونَ استثناءٍ، في إشارةٍ إلى شمولِ العذابِ.

سِرُّ الجمعِ بين المذكّرِ والمؤنّث ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

حظوظُ النّساء في النّفاق لا تَقِلُّ عن حظوظِ الرّجالِ

سِرُّ الجمعِ بين الموصوفيْن بالنّفاق في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾، بأن عطفَ المؤنّثَ على المُذكّر[4]، إيذانًا بمساواة المرأةِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 759.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 245.
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 388.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 381.

للرّجل في الوِزْرِ، وتنبيهًا بليغًا إلى أنّ حظوظَ النّساء من النّفاق والكفر لا تَقِلُّ عن حظوظ الرّجال، فكِلا الجنسيْن ما كان على هذه الشّاكلة فمَصيرُه جهنّمُ وبئسَ المِهاد.

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ﴾:

تبليغٌ دالٌّ على اعترافِ المنافقين وانكشافِ حقيقتِهم أمامَ المؤمنين

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ﴾ هي لامُ التّبليغِ الحازمة[1] التي تُفيد إيصالَ الكلامِ بقوّةٍ وقطعٍ لا مجالَ فيه للرَّدِّ أو الجِدالِ، كأنّ المنافقين يومئذٍ يعترفون صراحةً وبدونِ مواربةٍ للمؤمنين، ويُبلِّغونهم حقيقةَ موقفِهم المُخزي.

سِرُّ التّعبير بـ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنين):

محاولةُ استعطافِ المنافقين لأهلِ الإيمانِ بإيمانِهم

سرُّ التّعبير بـ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون ذِكْر (المؤمنين) يكمُنُ في مخاطبة النّاجين بإيمانهم مباشرةً، كأنّهم قد عَبَروا بسلام عظيم من مَطيّةِ الشَّكِّ والضّلالةِ إلى مَرافئِ اليقين والرّضوان، فتوجَّهَ الخطابُ إليهم بصيغةِ المُخاطَبين الذين اجتازوا مرحلةً فاصلةً، وفازوا برضا اللّه حتّى دخلوا فسيح جناته بطمأنينة وسكينة[2]. وممّا يُذْكَر في سِرّ التّعبير بـ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنين) الإشارةُ بأنّ صلة الاسم الموصول هي عِلّة استحقاقِهم للجزاء المذكور، وهو النّورُ يوم القيامة، وأنّ المنافقين قد حُجِبَ عنهم النّورُ بما كان منهم من نفاقٍ وعدم إيمانٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بالتّذكيرِ في قولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

التّغليبُ في الخطابِ من سننِ العربيّةِ

جاء التّعبير في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بصيغة التّذكير دون ذكرٍ للمؤمنات؛ لأنّه جارٍ على سنن التّغليب في الخطاب العربيّ، وإنّما اقتُصر هنا على ذِكْرِهم؛ لأنّ المقام مقامُ تبشيرٍ وإنارةٍ، وأصحابُ النّور - وهم المؤمنون والمؤمنات[3] - قد شُمِلوا في هذا التّغليب،

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 471.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 170.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 381.

فحسبُهم شرفًا أن يُدرَجوا في عدادِ هذا الجمع المبارك، وإن غاب عنهم اللّفظ صراحةً، فقد حضروا معنًى ومقامًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالانتظارِ دونَ الإمهالِ في قولِهِ: ﴿ٱنظُرُونَا﴾:

صرخةُ التّوقِ إلى النّورِ بين الاستعجالِ والاعترافِ بالضّعفِ

عبَّرَ القرآنُ بلفظِ الانتظار في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، ولم يُعبِّر بلفظ الإمهال؛ لأنّ الأنظار مرتبطةٌ بالانتظار المباشر والمشاهدةِ الفعليّة التي تشتمل على الانتباه والتّرقُّب، وهو انتظارٌ واضحٌ ومُحدَّدٌ يرافقه إدراكٌ لما ينتظر، بينما الإمهال يُعدّ تعبيرًا مبهمًا لا يدلُّ على ربط الانتظار بحركةٍ بصريةٍ مُحدّدةٍ، أو إدراكٍ واضحٍ، فالآيةُ تُصوِّر حالة المنافقين وهم يطلبون من المؤمنين أن يسمحوا لهم برؤية نورِهم، وهذا طلبٌ مُرتبطٌ بالحصول على بصيرةٍ واضحةٍ وإدراكٍ ملموسٍ، لذا كان اختيارُ الأنظارِ مناسبًا للدّلالة على انتظارٍ مرتبطٍ بالرّؤية والإدراك.

وممّا يُذكر في سِرِّ التّعبير بالانتظار دون الإمهال أنّه يدلّ على طلبٍ عاجلٍ ومباشرٍ للنّظر والاهتمام يحملُ في طيّاته تَوقًا إلى لحظة المواجهة والاعتراف بالواقع، إذ لم يكتفِ المنافقون بالمطالبة بدليلٍ أو مهلةٍ، بل أرادوا إشعارَ المؤمنين بحضورهم واستجداءِ نصيبٍ من نورهم بشكلٍ فوريٍّ وحيويٍّ، ممّا يعكس يأسَهم وحاجتَهم الماسّةَ للنّور الذي يملكونه.

أثرُ تعدُّدِ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿ٱنظُرُونَا﴾:

دلالة الفعل بين التّرفّق والانتظار

في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ قرأ حمزةُ بهمزة قطعٍ مفتوحةٍ في الوصل والابتداء بفتح الهمزة وكسر الظّاء: ﴿أَنظِرُونَا﴾، وقرأ الباقون بهمزة وصلٍ تُضمّ في الابتداء، وضمِّ الظّاء: ﴿ٱنظُرُونَا﴾[1]، وتكشف هاتان القراءتان عن تنوّعٍ دلاليٍّ بليغٍ، فقراءةُ حمزةَ تُشير

(1) الواسطيّ، الكنز في القراءات العشر: 2/ 675.

إلى معنى: "أمهلونا"، و"ارفقوا بنا"، طلبًا للتّمهُّل عَلَّهم يدركونهم؛ أمّا قراءة الباقين فتدلّ على معنى: "انتظرونا"، أو "التفتوا إلينا"[1]، وهو استعطافٌ يحمل رجاء الاستدراك، فكأنّ المنافقين يتلمّسون شعاعًا من النّور المفقود، وقد وقع في ظنّهم أنّ بُعْدَهم عن المؤمنين حاصلٌ بموجب سرعتهم[2]، وهو ظنٌّ فاسدٌ يوصِّلهم إلى الخِزْي والحِرمان. ويجوز في قراءة الجمهور ﴿ٱنظُرُونَا﴾ أن تكون على معنى: "انظروا إلينا"، وهي دعوة للاستقبال وفتح الطّريق، فعندما ينظر المؤمنون إلى هؤلاء المنافقين، فإنّهم يستقبلونهم بوجوههم المشرقة، ويكون النّور بين أيديهم، ممّا يتيح لهؤلاء المُتخلّفين فرصةَ الاستضاءة به[3]. ويجوز في قراءة حمزة ﴿أَنظِرُونَا﴾؛ أيْ: أمهلونا وأخِّرونا؛ أي: اجعلونا في مُؤخّركم، ولا تسبقونا بالنّور فتفوتونا، فإنّ سَبْقَكُم يَحْجُبنا عن اللّحاق بكم[4]، ففي اللّفظ توسُّلٌ خفيٌّ، ونداءُ يأسٍ من ماضٍ ضيّعوه، وطلبٌ يوشِكُ أن يُردّ بلا جوابٍ.

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾:

التماسُ النّورِ من خلفِ ستارِ النِّفاقِ

جاء الأمر مُثقلًا بالرّجاء، صادرًا عن قلوب أدركها الفواتُ، فكان أشبهَ بالاستغاثة لا مجرّدِ الطّلب، بل هو توسّلٌ بالتّريُّث والتّلطّف في السّير، علَّ شُعاعًا من نور المؤمنين يطالُهم، إنّه الالتماس الأخير لأقوامٍ تخلّفوا في الدّنيا بظُلْمةِ النِّفاقِ، فهم الآن يستبطئون خُطا النّور، ويلتمسون من أهل الإيمان أن يُبطئوا المسير، كي يلحقوا بهم، ويستنيروا بضوئهم، وهذه الدّلالة تُفيد ضمنًا أنّ اللّه قد أذن للمؤمنين أن يسيروا فوجًا إلى الجنّة، وجعل المنافقين من خلفهم، يسيرون في ظلماتٍ موحشةٍ، كما دلّ عليه قولُه ﷺ في حديث الشّفاعة: «وَتَبْقَى

(1) ابن الجزريّ، شرح طيبة النّشر، ص: 316.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 457.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 106.

هَذِهِ الأُمَّةُ فيها مُنافِقوها»[1]، فالأمر في ﴿ٱنظُرُونَا﴾ يصوّر مأساة المتأخّرين الذين ضلّوا السّبيل، وجاؤوا مُتثاقلين خلفَ السّائرين إلى النّور، يستجدون الانتظار، ولكن لا مجيب[2].

سِرُّ مجيءِ الفعلِ ﴿ٱنظُرُونَا﴾ غيرَ مُعدًّى بـ (إلى):

ورَدَ الفعل ﴿ٱنظُرُونَا﴾ دون تعديتِهِ بحرف (إلى)، فلم يُقُلْ: انظروا إلينا، مع أنّ الأصل في الفعل ﴿ٱنظُرُونَا﴾: انظروا إلينا، وقد جرى على هذا النّحو من باب الحذف والإيصال[3]، ممّا أضفى على اللّفظ قوّةً في الطّلب، وسرعةً في الإلحاح، فجاء مختصرًا يجمع بين التّوجيه والرّجاء في آنٍ واحدٍ. وممّا يُذْكَر في سرّ عدم التّعدية: أنّ الغاية لم تكن مجرّد الالتفات، بل المقصود أن يستقبلهم أهلُ النّور بوجوههم، لا أن يلتفتوا إليهم فحسب، إذِ النّورُ يسعى بين أيديهم، فإن هم استقبلوهم بأنظارهم، أشرق نورُهم في وجوه المتأخّرين، فأمكن أن يُستنار به[4]، وهذا غير مُرادٍ في الآية؛ لأنّ المنافقين قد أطفأ المولى سبحانه نورهم بما اقترفوا في حياتهم الدّنيا من الكفر والنّفاق. وليس المقصود من الفعل النّظر البصريّ، وإنّما الانتظار؛ إذِ العربُ إذا أرادت بـ(نظر) معنى الإبصار، عدّته بـ (إلى)، فيقولون: نظر إليه، أمّا إذا أسقطوا حرف الجرّ، كان المعنى: ترقّب وانتظر[5]. فدلّ حذف (إلى) في الآية على أنّ المنافقين لا يسألون من المؤمنين التفاتًا أو رؤية، وإنّما يستغيثونهم بالتّمهُّل والتّريُّث، لعلّهم يُدركون شيئًا من النّورِ.

المنافقون يُلِحّون على أهلِ الإيمانِ بالتّمهُّلِ لعلّهم يُـدْركـون شيئًا من النّورِ

(1) البخاريّ، الجامع الصحيح، حديث رقم: (773).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.
(3) حقّي، روح البيان: 9/ 360.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 475.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 391.

سِرُّ التّعبيرِ بالاقتباسِ دونَ الاستضاءةِ:

تصويرُ الحاجةِ وتجسيدُ الخَيبةِ

أوثِر التّعبيرُ بالاقتباس في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ دون الاستضاءةِ؛ لأنّه يجمع بين أكثر من معنًى، إذْ هي في الوقت نفسِه أخذٌ ونصيبٌ واستضاءةٌ ونورٌ يُستنار به[1]، وفيه إشارةٌ إلى شدّة الحاجة والافتقار إلى هذا الضّوء. وممّا يُذْكر في سِرِّ التَّعبير بالاقتباس: أنّه يوحي بالاقتطاف المحدود؛ لأنّ الدّلالة فيه على التّقليل ظاهرة، إذِ القَبَس في أصله جَذْوةٌ يسيرة تُستَجلَب من نار[2]، تُضيء قدرًا ضئيلًا، ففي اللّفظ إشعارٌ بالحاجة، واعتراف بالافتقار، وتَمَنٍ لنصيبٍ يسيرٍ من هدايةٍ، لا تُنال إلّا بصدق الإيمانِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾:

نداءٌ مُتجدّدٌ في طلبِ اقتباسِ النّورِ

جاء التّعبير بفعل الاقتباس مضارعًا؛ لأنّه يدلّ على تصوير الحَدَث وكأنّه جارٍ حيٌّ متجدّدٌ، يُستَحضر أمامَ السّامع بكلّ ما فيه من لهفةٍ وتوسُّلٍ واضطرابٍ؛ لأنّ المضارع يدلّ على الحال والتّكرار والاستمرار[3]، وفي ذلك إبرازٌ لحالة الاضطراب النّفسيّ التي يُعانيها المنافقون، فهم يطلبون النّورَ في صورةِ حالٍ مُتجدِّدة، فهم في كلِّ لحظةٍ يُلحّون على المؤمنين بقولهم: "دعونا نقتبس الآن، ولو شُعاعًا!"، فحكى الفعلُ حالَهم المتكرّرةَ، وأمانيهم المُلحّةَ بأسلوبٍ يُثير الشّفقةَ، ويكشف الخُذلانَ.

دلالةُ لفظِ ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾ بين الحقيقةِ والمَجازِ:

وَهْمُ الاقتباسِ بين لَهَبِ النّارِ ونورِ الإيمان

يشفّ لفظُ ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾ عن ثراءٍ دلاليٍّ بين الحقيقة والمجاز؛ فالأصلُ فيه حِسّيٌّ، إذْ أَخْذُ الاقتباسِ معناه: أخذُ قَبْسَةٍ من لهبِ النّار، فيكون استعمالُه على الحقيقة؛ لأنّ المنافق يظنّ أنّ النّور شعلةٌ ماديّة يمكن انتزاعُ جُزءٍ منها، فجاء التّعبيرُ ليُجَسّدَ حيرتَهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 273.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 339.
(3) السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 355.

وخيبتَهم، ويضاعفَ الإيحاءَ بالحَسْرة التي تعصف بهم حين يُردّون خائبين، إذ لا يُقتبس من نور الإيمان إلّا بما سبق من صدقٍ ويقينٍ[1]. وقد يُحمَل طلبُ المنافقين للاقتباس من نور المؤمنين على المجاز؛ إذ ظنّوا أنّهم يقدرون على أخذ شيء من أنوار الإيمان كما يأخذون جمراتِ النّار الدّنيويّة، غافلين عن حقيقة أنّ هذه الأنوارَ ثمرةُ الأعمال الصّالحة في الدّنيا، فكما لا يُقطف ثَمَرٌ من شجرةٍ لم تُغْرَس، كذلك لا ينال نورٌ بغير عملٍ صالحٍ[2]، فبُطلانُ الأصل (الأعمال) يستلزمُ بطلانَ الفرعِ (الأنوار)، وهذا من جهلهم بحقيقةِ الإيمانِ وثوابِهِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في فعلِ الاقتباسِ:

محاولةُ انتفاعِ المنافقين بنورِ المؤمنين دونَ نُقصانِه

في قوله تعالى: ﴿نَقْتَبِسْ﴾ استعارةٌ على سبيل التّمثيل لانتفاع المنافقين بنور المؤمنين، كما ينتفع المُقتبس بضَوء النّار دون أن يُنقِصَ منها، فكأنّهم يطلبون الالتحاق بسبيلهم، والاستنارة بهَدْيهم[3]، فصار الاقتباس استعارةً مجازيّةً للتّعبير عن الانتفاع الرّوحي بما لا يؤدّي إلى نقصان الأصل.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن نُّورِكُمْ﴾:

تبعيضٌ دالٌّ على ذُلِّ السّائلِ وعِظَمِ المحرومِ منه

حرفُ الجرّ في قوله تعالى: ﴿مِن نُّورِكُمْ﴾ دالٌّ على التّبعيض، فإنّهم لا يطمعون في النّورِ كلّه؛ فالتّعبيرُ يَشي بذُلّ السّائل، وضآلةِ المطلوب، وعِظَمِ المحروم منه، وهذا بذاته إقرارٌ خفيٌّ بعُمقِ الفجوة بين حالهم وحالِ المؤمنين، واعترافٌ مُبطَّن بالفارق الجوهريّ في الاستحقاق.

دلالةُ التّعبيرِ بالنّورِ مُفردًا:

النّورُ الحقُّ واحدٌ لا يتعدّدُ

جاء التّعبيرُ بالنّور مُفردًا لا جمعًا في قوله تعالى: ﴿مِن نُّورِكُمْ﴾، فلم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 457.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.

يَقُلْ: (من أنواركم)؛ تنبيهًا على أنّ النّور الحقّ واحدٌ لا يتعدّد، وهو نور الهداية والمعرفة الرّبّانيّة والأخلاق الفاضلة[1]، بخلاف الظّلمات التي تتعدّد بتعدّد سُبل الغِوايَة والضّلال. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بالإفراد أنّ النّور في الآية نورُ البصيرة لا نورُ البصر؛ لأنّه ضياءُ المعرفة لا شعاعُ المَرئيّات، وإذا كان الأمر كذلك، تبيّن أنّ النّور الحقَّ في مشهد القيامة هو نور معرفةِ اللّه تعالى، لا يُزاحمُه نورٌ، ولا يتعدّد بتعدّد الأنظار، فهو نورٌ واحدٌ[2]؛ لأنّه حقٌّ مُطلقٌ لا يتجزّأ ولا يتلوَّن.

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿نُورِكُمْ﴾:

نـورٌ مخصوصٌ لأهـلِ الإيـمـانِ لا يـتـعـدّاهـم لغيرِهِم

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿نُورِكُمْ﴾ دالّةٌ على التّخصيص والاختصاص؛ أي: النّور الذي هو لكم وحدَكم، لا يُهدى لغيركم، ولا يُنالُ بالتماسٍ بعد الفوت، فكأنّهم يقولون: هذا الذي نراه يخصُّكم، كما كنّا في الدّنيا نرى منكم ظواهرَ الإيمانِ، ولا نُصيبُ من حقائقه شيئًا[3]، فظاهرُ الأمر كان مشتركًا، وأمّا النّور الباطن، فلَكُم لا لغيركم.

دلالةُ بناءِ الفعلِ ﴿قِيلَ﴾ للمفعولِ:

الـرّدُّ أوجـعُ من قـائلـه في بلاغةِ التّجهيلِ

وُرودُ الفعل ﴿قِيلَ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ لأنّ المقصودَ ليس تعيينَ القائل، بل إبرازَ قسوةِ الرّدِّ ذاته، إذْ إنّ المَنكأ الحقيقيَّ هو الرّدُّ بالرّفض والإهانة، لا هويةُ من تلفّظ به[4]، فكأنّ الجوابَ جاء صفعةً من القَدَر، لا تحتاج إلى ناطقٍ، تُسَدّ بها أبوابُ الرّجاء، وتُغلَقُ منافذُ الطّلب. وممّا يُذكَرُ في سرِّ إيرادِ الفعل ﴿قِيلَ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ الإفادةُ بأنَّ القائل ليس من جملة المؤمنين المخاطَبين، بل هو صادرٌ عن الملائكة السّائقين للمنافقين[5]، فجاء الإبهام في الذِّكْر ليدلَّ على

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 451.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 5/ 382.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 206.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 274.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.

أنَّ مصدر هذا القول ليس من البشر، بل هو من عالَمِ الغيب، ممّا يُضفي على الكلام هيبةً وقُدسيّةً. وأيضًا بُنيَ الفعل ﴿قِيلَ﴾ للمفعول دون إسناده لفاعلٍ مُعيَّنٍ؛ إمعانًا في التّهويل، وترسيخًا لهول الموقف، وهو صادرٌ من المؤمنين أنفسهم[1]، ناطقين بلسان الحقيقة، إشارةً إلى انفصالِ المصير، وتلاشي ما كان بينهم من ظاهرِ الاشتراك، فكأنّهم يصدّونهم بكلمةٍ لا رجعةَ بعدها. وعلى كِلا الاعتباريْن إنْ كان من الملائكة أو المؤمنين فالتّعبير بهذه الصّيغة ﴿قِيلَ﴾ يُفيد طردًا صريحًا لا مجاملةَ فيه، ونبرةَ تهكُّمٍ مُبطّنةٍ[2] تُجرِّدُهم من أدنى أملٍ في الإدراك أو اللّحاق، وكأنّ الخطاب يصفعهم بمرارةِ الحقيقة التي طالما غفلوا عنها.

ومن لطائف صياغة الفعل ﴿قِيلَ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ الدّلالة على أنّ هذا الجواب هو الذي لا يُتصوَّر غيرُه، وإن لم يتلفّظ به أحدٌ، فهو جوابُ الحال قبلَ أن يكون جوابَ المقال؛ ناطقٌ بما في الموقف من قطعٍ ويأسٍ، لا يحتاج إلى مُعبِّر، إنّه ردعٌ صارمٌ للمنافقين والمنافقات، يقيِّدُهم في مواضعهم التي جَنَوها، فلا يبرحونَها حتّى يُقْضَى فيهم قضاءُ الحقِّ الذي لا مَفَرَّ منه ولا تأجيل[3].

دلالةُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ يتجلّى أمرٌ ربّانيٌّ في صورةِ مَكْر اللّهِ بهم؛ حيثُ يُجازَى بها المنافقون على خداعهم المتواصل، فيُخَيَّل إليهم أنّ الرّجوع سيمنحُهم النّورَ المفقود، كما كانوا في الدّنيا يخادعون الله وهو خادعهم، فيعودون إلى حيثُ ظنّوا النّور قُسِّم، فلا يجدون شيئًا، فيرجعون أدراجَهم حَيارى، فإذا السّورُ قد ضُرب، والفصلُ قد وقع[4]. ومن دلالة الأمر بالرّجوع: أنّه يحمل في طيّاته التّوبيخَ والطّرد؛ أيْ: عودوا إلى الموضع الذي قُسِّم فيه النّورُ حيثُ منحنا الفوزَ، فالتمسوه هناك إنِ استطعتم، أو ارجعوا إلى الدّنيا فالتمسوا نورًا بتحصيل سببِه الحقّ، وهو الإيمان، أو تَنحّوا عنّا، فالتمسوا نورًا آخرَ غيرَ الذي معنا، فلا سبيلَ لكم إلى اقتباسه، وقد كانوا يعلمون أن لا نورَ وراءَهم، وإنّما هو قطعٌ للأمل، وتيئيسٌ وإقناطٌ بعد طولِ خداعٍ[5].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 246.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 207.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 760.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 458.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 106.

رجعةُ الخِداع وصدمةُ الحِرمانِ

وممّا يُذكر في دلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ أنّه يدلّ في ظاهره على الأمر، لكنّ باطنه تهكّمٌ مريرٌ؛ إذ لا نورَ وراءَهم يُرجى، وإنّما أُريد بها إطماعُهم ثمّ خذلانُهم، بضَرْبِ السّورِ الفاصل بينهم وبين المؤمنين؛ لتكونَ الخيبةُ بعد الطّمعِ أشدَّ حسرةً، وذلك جزاءٌ من جنس عملهم، واستهزاءٌ إلهيٌّ عادلٌ، يقابل استهزاءَهم السّابقَ بالمؤمنين، واستخفافَهم بهم في الدّنيا[1].

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾:

الرّجوعُ المُهينُ تهكّمٌ مُبطَّنٌ لا تراجعٌ مقصودٌ

سِرُّ التّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ دون أن يُقال: (ارتدّوا)، يكمن في الإيحاء الرّقيق بمفارقة تحمل لونًا من التّهكّم المُبطّن؛ فالفعلُ يُفيد العودةَ إلى الموضع الأوّل من حيثُ جاؤوا[2]، كأنّهم خرجوا في طلب النّور من غير أهله، فقيل لهم: عودوا خاسئين إلى بدايتكم العقيمة، بخلاف (ارتدّوا) التي توحي برَدَّة فعلٍ قسريّةٍ أو إجباريّةٍ مع الإكراه[3]، لا تليق بسياق التّهكّم المُرّ المقصود هنا، إذِ المرادُ ليس مجرّدَ الإبعاد، بل الإذلالُ والخيبة بعد رجاءٍ مَوهومٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بالوراءِ دونَ الخَلْفِ:

الإشارةُ إلى أنّ الدّنيا قد مضتْ والرّجوعَ إليها مُحالٌ

في اختيار لفظِ الوراء دونَ الخَلْفِ؛ الإشارةُ إلى أنّ الدّنيا وقد مضت وانقضى أجلُها لم تَعُد مُجرّدَ موضعٍ مكانيٍّ خَلْفَ ظهورِهم؛ بل أصبحت شيئًا مُتقادمًا مطويًّا، كأنّه وراء ظهورهم لا يُدرك[4]، ولا يُرتجى، وهو أبلغ في الدّلالة على استحالة الرّجوع، والإيحاء بقطع الرّجاء.

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ بعد قولِهِ: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾:

جاء التّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ عقبَ الأمرِ بـ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.
(2) الواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 1068.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 8/ 156.

توكيدُ الرّجوعِ وإبـرازُ نَـدَمِ الفوتِ الذي لا يُستدرَك

لأنّ المُرادَ بالوراءِ الدّنيا التي خلّفوها خلفَهم، فهي موطنُ النّورِ الحقيقيّ الذي يُكتسَبُ بصفاءِ المعرفةِ، وزكاة العمل[1]، فالدّنيا صارت وراءَهم وجودًا ومعنًى، ولا يُنال ما فات فيها، وفي ذلك تقريعٌ مؤلِمٌ لهم. وممّا يُذْكَر في سِرّ التّعبيرِ بقوله: ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿ٱرْجِعُواْ﴾ أنّ الوراء توكيدٌ لمعنى الرّجوع، إذ لا رجوعَ إلّا إلى الوراء، كما يُقال: رجعَ القَهْقَرى، فجاء اللّفظُ ليُرسِّخ في ذهن السّامع صورةَ الانكفاء التّامّ، لا التّقدّمَ ولا الثّباتَ، ويُحتمل أن يكون ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ ظرفًا مُتعلّقًا بـ﴿فَٱلْتَمِسُواْ﴾؛ أي: التمسوا النّور في الموضع الذي خلّفتموه خلفَكم[2]، حيثُ كان مظنّةَ النّور، ففاتَكُم.

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿وَرَآءَكُمْ﴾:

الإضـافـةُ تُـحـمِّـلُـهـم وحـدَهـم وِزْرَ التّفريطِ

استعمَلَ التّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ الوراء مُضافًا إلى ضمير المُخاطَبين في قوله: ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ لا لتحديد الجهة فحسب، بل لتأكيد أنّ موضعَ الرّجوعِ خاصٌّ بهم، والمُراد ماضيهم وحدَهم، حيثُ تركوا النّورَ وضيّعوا سببَه، فكأنّ الإضافةَ تُحمِّلُهم وحدَهم وِزرَ التّفريطِ، وتُشعرهم بأنّ الوراءَ الذي يُدعَون إليه ليس مكانًا عامًّا، بل هو تاريخُهم الشّخصيّ الضّائعُ، ومصدرُ خيبتِهم الذي لا يُشاركهم فيه أحدٌ.

دلالةُ التّعبيرِ بجملةِ ﴿ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾:

رجـوعُ توبيخٍ لا رجوعُ تنفيذٍ

ليس المقصودُ من قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ أمرًا حقيقيًّا بالرّجوع والتماسِ النّور، بل هو توبيخٌ وتعييرٌ، يحمل في طيّاته مرارةَ الفضيحةِ، ومُرَّ الخُذلان؛ إذ يُقال لهم بلسان التّقريع: النّورُ لا يُلتَمس الآن[3]، فقد فات أوانُه. ولأنّ فعلَ الرّجوع يتضمَّن طردًا مُزَلزِلًا، وتهكّمًا مُرًّا، إذ يوجَّه الخطابَ للمنافقين أن يعودوا إلى حيثُ قُسِم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 274.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 383.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 521.

النّور ابتداءً[1]، وكأنّهم يستطيعون اقتباسَه بعد فواتِ الأوانِ، فهي دعوةٌ ظاهرُها الإرشادُ، وباطنُها الإبعادُ، يُساقون بها إلى خيبتِهم، لا إلى ضوءٍ يُرتَجى، ومن ثَمّ لا يقتبسُ إلّا الحسرةَ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفاءِ في فعلِ الالتماسِ:

ترتّبُ التماسِ النّورِ على الرّجوعِ توهيمًا لا تحقيقًا

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾ الفاءُ مُفصِحةٌ عن ترتّبِ التماسِ النّورِ على الرّجوعِ، فالالتماسُ بسببِ الرّجوعِ[2]؛ فهذا الطَّلبُ نابعٌ عن ذلك الأمرِ الموهومِ، وكأنّ الرّجوعَ يُثمر نيلَ النّورِ، وهو في حقيقتِهِ خُدعةٌ تُفضي إلى الخيبةِ، لتزيدَ الموقفَ مرارةً وسخريةً، وتُعمّقَ مأساةَ المنافقين إذ يُساقون إلى طلبٍ يعلمُ الجميعُ استحالتَه.

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾:

إذنٌ ظاهريٌّ وتيئيسٌ باطنيٌّ في انتظارِ الثّمرةِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾ دون (تجدوا)؛ لأنَّ الالتماس مجرّدُ طلبٍ وسعيٍ مظنونِ النّتيجة، لا يقتضي تحقُّقًا، وطلبُه يتحقّق بالإيمانِ والعملِ الصّالحِ في الدّنيا وليس الآن[3]، بخلافِ الإيجادِ الموحي بوعدٍ وقُربِ وصولٍ، فجاء الالتماسُ إظهارًا لخيبةِ الرّجاءِ، فهو أمرٌ يحملُ في ظاهره الإذنَ، وفي باطنِهِ التّيئيسَ والخُذلانَ.

دلالةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ﴾:

الخداعُ بالمنافقين جزاءَ وفاقًا

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۚ﴾ يتجلّى الأمرُ في صورةِ خديعةٍ إلهيّةٍ بديعةٍ، خُدِعَ بها المنافقون جزاءَ خديعتِهم، مصداقًا لقولِ الحقّ سبحانه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النّساء: 142]؛ إذ أُمِروا بما يعلم اللّهُ أنّهم لا ينالونه، فاندفعوا برجاءٍ زائفٍ إلى موضعٍ قُسِمَ فيه النّورُ فلم يَجِدوا شيئًا، فعادوا أدراجَهم ليُفاجَؤوا بسورٍ قد ضُرِبَ بين النّور وأهلِه[4]، وبينَهم وبينَ مَنْ كانوا يطمعون أن يقتبسوا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 275.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 19/ 274.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 339.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 458.

منهم، فانقطعت السُّبُلُ، وتقطَّعتْ بهم الأسبابُ، وخابت آمالُهم كما خابتْ نيّاتُهم.

دلالةُ التّنكيرِ في قولِهِ: ﴿نُورًا﴾:

إظهارٌ للخُذلانِ وتحقيرٌ للرَّجاءِ المفقودِ

التّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ يُفيد التّقليلَ، أو التّحقيرَ، فيوحي بأنّهم يطلبون أيَّ نورٍ كان، ولو كان يسيرًا، بعد أن فاتهمُ النّورُ الحقيقيُّ الموهوب للمؤمنين، وهذا يدلّ على ضياعهم وتخبّطهم وعدمِ إصابتهم[1]، وأنّهم في طلبِهِم ليسوا على بصيرةٍ ولا على هدًى، فزادهم التّنكيرُ تحقيرًا وخُذلانًا. وفي التّنكير تقليلٌ وتوهينٌ يوحي بأنّهم لا يُؤمَرون بالتماس نورٍ عظيمٍ، بل يبحثون عن أدنى قبسٍ لا يُرتَجى.

دلالةُ الإفرادِ والتّنكيرِ في قولِهِ: ﴿نُورًا﴾:

دِقّةُ بيانٍ وجزالةِ معنًى؛ ليوحي بإبهامِهِ وتعدُّدِ دلالاتِهِ

سِرُّ التّعبير بكلمة ﴿نُورًا﴾ مُفردًا مُنكّرًا يَكْمُن في دِقّة البيان وجزالةِ المعنى؛ ليوحي بإبهامه وتعدّدِ دلالاته، فهو يحتمل أن يكون نورًا حسّيًّا أُعطيَ للمؤمنين في الموقف، أو نورًا معنويًّا في الدّنيا سببُه الإيمان، أو نورًا خاصًّا لا يُنال إلّا لِمَن أُهِّلَ له، ممّا يؤكّد أنّ المنافقين لا سبيل لهم إليه، ولا قدرة لهم على إدراك حقيقته[2]. وفي الإفراد تجريدٌ يُضخِّم المفارقة بين حالهم وحالِ المؤمنين أصحابِ النّور التّامّ، فهو تعبيرٌ مُشبَعٌ بالتّهكّم، يُخَيَّل إليهم أنّ وراءهم نورًا يُلتمس، وقد علموا أنّه لا نور، بل ظلمةٌ كثيفةٌ، فقيل لهم ذلك تخييبًا وتبكيتًا[3]، لا طلبًا حقيقيًّا.

سِرُّ التّعبيرِ بالنّورِ دونَ الضّوءِ:

النّورُ رمزٌ شاملٌ للإيمانِ والعملِ الصّالحِ

التّعبيرُ بالنّور دونَ الضّوءِ يكمن في عمقِ الدّلالة وجلالِ المعنى؛ فالنّور في اللّغة ليس محضَ ضوءٍ، بل رمزٌ شاملٌ للإيمانِ والعملِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 160.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 475 - 476.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 207.

الصّالحِ، يُضيئان دربَ الإنسانِ في ظلماتِ الحياةِ، فالأمرُ هنا استعارةٌ بليغةٌ تدعو إلى الرّجوعِ إلى الدّنيا، طالبين هذا النّور الرّوحيَّ، الذي يهدي إلى النّجاة، كما يهدي النّورُ الحقيقيُّ في كثافةِ الظّلماتِ[1]. وممّا يُذْكَر في سِرِّ التّعبيرِ بالنّور دونَ الضّوءِ، أنّ الضّوء ما كان صدورُه ذاتيًّا؛ بخلافِ النّورِ، فهو ما كان مُكتسبًا من غيرِهِ، وهذا هو المناسِبُ لسياقِ الآيةِ؛ لأنّ نورَ المؤمنين مُكتسَبٌ من أعمالهم الصّالحة، وفي هذا دليلٌ على أنّ المنافقين أعمالُهم سيّئةٌ.

سِرُّ العدولِ في قولِهِ: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۚ﴾:

التّبكيتُ والتّهكّمُ بالمنافقين

العدولُ في التّعبيرِ بالنّورِ من إضافتِهِ إلى تنكيرِهِ يحملُ إيحاءً ساطعًا بأنّ النّورَ المطلوبَ غيرُ ذلك النّورِ السّابقِ الذي كان من نصيبِ المؤمنين، بل هو نورٌ آخرُ مباينٌ غيرَ قابلٍ للاقتباسِ أو المنالِ، وهذا العُدولُ يُعزِّزُ التَّهكُّم الإلهيَّ بحالِ المنافقين[2].

دلالةُ الأمرِ بالرّجوعِ والتماسِ النّورِ المفقودِ:

إبرازُ خيبةِ المنافقين وانكسارِ أوهامِهم

تظهرُ بلاغةُ الأمر بالرّجوع والتماس النّور المفقود في إبراز خيبةِ أمل المنافقين تهكّمًا بهم، كأنّ المنافقين يُرغَمون على البحث عن نور لا وجودَ له، فتُسَلَّط عليهم كلماتُ الأمر كمرآةٍ عاكسةٍ لخيباتِ أمانيهم، إذ لا نورَ وراءَهم[3]، وإنّما كانت الدّعوة وسيلةً لإطماعهم بالوَهمِ الذي دأبوا على احتضانِهِ؛ لأنّ النّور الذي يطلبونه ليس إلّا وهمًا بعيدَ المنال، يعلمون في قرارةِ أنفسِهم استحالتَه، فلا يجدون وراءهم إلّا فراغًا خائبًا، وأملًا مكسورًا وهو في حقيقته تخييبٌ وإقناطٌ لهم[4]، فتتبدَّدُ أوهامُهم وتنطفئ أضواؤهم.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 146.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 8/ 156.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 476.

سِرُّ تقديمِ ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ على عامِلِهِ:

الاهتمامُ بالمكانِ الذي ظنّوا أنّ النّورَ فيه

دلَّ تقديمُ ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ على الاهتمامِ بالمكان الذي يُظنّ أنّ النّور فيه، فجاء الكلامُ بصورةِ إغراءٍ خادعٍ، يوهِم المنافقين بأنّ النّور ممكن هناك، حيثُ انطلق المؤمنون، فيندفعون برجاءٍ زائفٍ إلى موضعٍ يخلو منه، ويكون التّقديمُ أداةَ تهكّمٍ مُبطّنةً، لا تُصادِم الحقيقة، بل تأتي من جنسِ المعاريض التي توحي دون أن تُصرِّح، وتُضلِّل دونَ أن تَكْذِب[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَضُرِبَ﴾ دونَ غيرِها:

التّعجيلُ السّريعُ بعاجلِ الإهانةِ للمنافقين

آثَر السياق القرآنيُّ التّعبيرَ بالفاء في قوله: ﴿فَضُرِبَ﴾ دونَ غيرِها من حروف العطف؛ لأنّها تحتمل عِدّة معانٍ؛ منها: التّعقيب السّريع[2]، إيذانًا بعاجل الإهانة، وشدّةِ المقام، فكأنّ ضرب السّور جاء مباغتًا، عقبَ قولِ المؤمنين للمنافقين: ارجعوا إلى الموضع الذي اقتُبس منه النّور، فالتمسوا هناك نورًا لأنفسكم، فما أنِ انصرفوا وانعزلوا في سعيٍ يائسٍ لا طائلَ تحته[3] حتّى عاجلتهم القطيعةُ الإلهيّةُ بضربِ الحاجزِ المنيعِ؛ إيذانًا بانفصالٍ لا التئامَ بعدَه، وحُكمٍ لا استئنافَ فيه. ومنها: السّببيّة؛ فالفاء الدّاخلة على فعل الضّرب تحمل معنى العِلّة والسّبب، فالتّقدير الفعليّ هنا هو: فرجعوا أو فأقاموا في الظّلمة، وهذا هو السّبب المُؤدّي إلى الفعل التّالي[4]، فالفاء إذًا تربط بين السّبب والنّتيجة، فتُبرز العلاقةَ الحتميّة بين فعل الرّجوع أو البقاء في الظّلمة، وبين وقوع الضّرب الذي يُفرّق بينهم وبين المؤمنين. والظّاهر أنّ قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾، فيدلّ على أنّ المؤمنين أو الملائكةَ حالوا دونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 382.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 274 - 275.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 246.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 274.

لَحْق المنافقين بهم، والاستضاءةِ بأنوار معارفهم وأعمالهم، فبَقيَ المنافقون في ظلمةِ نفاقِهم، محرومين من الاقتداء بأصحابِ الأنوارِ، كما يحرم الأعمى من الانتفاع بنور البصر؛ فصار الأمرُ كأنّ بينهما سورٌ حائلٌ، باطنُه فضلٌ ورحمةٌ تلحق المؤمنين بنورٍ يُفضي بهم إلى الجنّة، وظاهره - أيْ: جانب المنافقين - حجبٌ وظُلمةٌ وعَزْلٌ[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالضّربِ في قولِهِ: ﴿فَضُرِبَ﴾:

انقطاعُ الأملِ وافتراقُ المصيرِ

أوثر التّعبيرُ بالضّرب في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ﴾ دون غيره؛ لما يحمله هذا اللّفظ من قوّة الفعل وفُجائيّته، فهي ليست مجرّدَ إقامة، أو وضع للسّور؛ بل هي فعلٌ يحمل في طيّاته معنى الحسم والبَتّ، كمَن يضرب فاصلًا قاطعًا لا رجعة فيه؛ وبما يُشبه صفعةَ الفصلِ الأخيرة، بين المؤمنين والمنافقين، إيذانًا بانقطاع الأمل، وانغلاقِ الباب، وافتراق المصير. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بالضّرب في قوله: ﴿فَضُرِبَ﴾ دلالتُه على التّثبيت والقوّة وتحوّل السّور إلى حائطٍ صُلْبٍ لا يُخْتَرق، وسرّ ذلك يعود إلى ارتباط معنى الضّرب في اللّسان العربيّ بالبناء والتّثبيت، إذ إنّ كلّ بناءٍ يحتاج إلى ضربٍ باليد أو بأداةٍ، كالمطرقة لتثبيت أجزائه، كما في ضرب الخيمة بأوتادها[2]، فيأتي الفعلُ حاملًا دلالةَ القوّة والتّثبيت العمليّ، فتجعل السّور حائطًا صلبًا لا يُمكن اختراقُه.

دلالةُ بناءِ الفعلِ ﴿فَضُرِبَ﴾ للمفعولِ:

بناءٌ كضربةٍ واحدةٍ تفصلُ بين المنافقين والمؤمنين دفعةً واحدةً وبلا تأخيرٍ

الفعل ﴿فَضُرِبَ﴾ بُني للمفعول[3]، وهو اختيارٌ دقيقٌ يحمل دلالةً قويّةً على أنّ بناء السّور تمّ بضَرْبٍ واحدٍ سريعٍ، يُجسِّد سهولةَ التّنفيذِ وفجائيّةَ الفعلِ[4]، ويُشير إلى أنّ السّور أُقيم دفعةً واحدةً

(1) زادة، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 111.
(2) حقّي، روح البيان: 9/ 361.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 106.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.

في لحظةٍ خاطفةٍ سريعةٍ، لا بتدرّجٍ أو تركيب لبنة لبنة، أو جزءًا جزءًا، كما هو الحال في إقامة الخيام التي تُسمّى في لحظةِ تثبيتها بالضّرب[1]، فتتجلّى القوّةُ والصّرامة في هذا الفعل، فتتحوّل إلى حائطٍ صلبٍ ثابتٍ لا ينكسر.

دلالةُ تَعدّي فعلِ الضّربِ بالباءِ في الآيةِ:

الأصلُ في فعل الضّربِ أن يكون مُتعدّيًا بنفسِهِ[2]، لكنّه ورد في الآية مُتعدّيًا بالباءِ في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾، لِما تضمَّنه من معنى الحَجزِ؛ إيذانًا بأنّ السّور لم يكن مجرّدَ فاصلٍ، بل هو حاجزٌ قاطعٌ ومانعٌ، ضُرِبَ ليَفصِلَ بين المؤمنين والمنافقين، قاطعًا لأطماعهم، تاركًا إيّاهم في ظلماتٍ لا يبصرون؛ فكان بذلك تجسيدًا حقيقيًّا للمَثَل الذي ضربَهُ اللّهُ لهم في الدّنيا في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: 17]، فكانت الظّلمةُ والحَيْرةُ، وعاقبة التّيه عن النّور عذابهم الأليم[3].

ضَـرْبُ السّـورِ حَجبٌ للنّورِ عن المنافقين وقطعٌ لأطماعِهم

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيةِ ﴿بَيْنَهُم﴾:

دلَّ التّعبيرُ بالظّرفية ﴿بَيْنَهُم﴾ على أنّ ضَرْب السّور شاملٌ لكلِّ المسافةِ الفاصلةِ بين أهلِ الإيمانِ وأهلِ النّفاق في آنٍ واحدٍ[4] دونَ استثناء، فعُزِلوا بسورٍ متكاملٍ يحوي بابًا، يقطعُ كلَّ سبيلٍ للتّواصلِ أو الاختلاطِ في لحظةِ النّطقِ بهذا القولِ.

عزلٌ كاملٌ وقطعٌ نهائيٌّ لكلِّ صلةٍ بين المؤمنين والمنافقين

دلالةُ تقديمِ الظّرفيّةِ ﴿بَيْنَهُم﴾ على ﴿بِسُورٍ﴾:

في تقديمِ الظَّرفِ ﴿بَيْنَهُم﴾ على الجارِّ والمجرورِ ﴿بِسُورٍ﴾ تعجيلٌ بصورة العَزْل والفصل، حيثُ يُلْقَى في رَوع السّامع أوّلًا مشهدُ

تصويرُ العُزلةِ الكاملةِ وتعجيلٌ بصدمةِ الانقسامِ قبلَ ظهورِ السّورِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 761.
(2) المُعافريّ، الأفعال: 1/ 62.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 383.
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 19/ 275.

الانقسام المكانيّ الحاسم بين الفريقيْن، وكأنّ المسافة الفاصلة قدِ امتلأت بالسّور قبلَ ذِكْرِهِ؛ فجاء التّقديمُ لإبراز هولِ القطيعةِ، وشمولِ الضّربِ لكلِّ ما بينهم من أرضٍ واتّصالٍ.

دلالةُ الإضمارِ في قولِهِ: ﴿بَيْنَهُم﴾:

إضمارُ القطيعةِ حين يُغني السّكوتُ عن التّسميةِ

جاء التّعبيرُ بالإضمار في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُم﴾ دون الإظهار؛ فلم يَقُلْ: (بين المؤمنين والمنافقين)؛ لأنّ الإضمار يوحي بأنّ الهوية معروفةٌ مفهومةٌ، وأنّ الفَصل بالغُ الوضوح، كما أنّ الإضمار يُسهم في تعميق الشّعور بالقطيعة، إذْ لا حاجة لذِكْر الأسماء بعد أن قُطع ما بينهما من صلةٍ.

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِسُورٍ﴾:

توكيدٌ لتوثيقِ الفصلِ وتجسيدِ المفاصلةِ

الباء في قوله: ﴿بِسُورٍ﴾ تُفيد التّوكيد[1]؛ فهي تُثبّت وقوعَ الضّربِ بالسّور نفسِه، لا بأيّ شيءٍ آخر، وتدلّ على أنّ الحاجز لم يكن مَجازًا أو تصوّرًا، بل كان فاصلًا ماديًّا حقيقيًّا صارمًا، يُرسِّخ واقع القطيعة بين الفئتيْن، ويجعل المفاصلةَ بينهما أمرًا لا رجعة فيه. ويجوز أن تكون الباءُ للمصاحبة؛ لأنّ من معاني الباء في لسان العرب دلالتُها على المصاحبة[2]، وجاءت في ﴿بِسُورٍ﴾ لتُفيدَ هذا المعنى، مُشعرةً بأنّ الضّرب لم يكن مجرّدَ إقامةِ حاجزٍ، بل كان مُقترنًا بالسّور ذاته، كأنّ السّورَ حضرَ مع الفعل حضورًا مباشرًا، يلاصقُه ويلتحم به، ليُصوّرَ بذلك مشهدًا حِسّيًّا قويًّا للفصل الواقع، ويُضفي على المشهدِ رهبةَ الحائلِ المحسوس الذي لا يُتجاوز.

سِرُّ التّعبيرِ بالسّورِ دونَ الحجابِ أو الحاجزِ:

جدارٌ لا يُخترقُ في مشهدِ المُفاصلةِ

آثَر التّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ (سور) في قوله: ﴿بِسُورٍ﴾ دونَ (حجاب) أو (حاجز) لما له من خصوصيّةٍ، إذِ السّورُ في أصل معناه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 458.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 40.

هو الحاجز المحيط بالمدينة، المُشيّدُ للحماية من العَدوّ[1]، فهو ليس مُجرّدَ فاصلٍ، بل جدارٌ مُحْكَمٌ دائريٌّ، يوحي بالإحاطة والتّحصين والمنعِ الكامل[2]، وفي هذا التّصويرِ استدعاءٌ لمعنى الحصار والعَزْلِ التّامّ، ويُضفي على المشهد رهبةَ الحبسِ والانفصالِ الذي لا يُكسر.

دلالةُ تنكيرِ (سورٍ) في الآيةِ:

تفخيمُ السّورِ وتهويلُه

جاء تنكيرُ (سورٍ) لإفادة الفخامة والتّهويل، لا لأنّه سورٌ مجهولٌ، بل لأنّه حاجزٌ عظيمُ الشّأنِ[3]، مَهيبُ المظهرِ، ضُرِبَ فجأةً بين شِقّ الجنّة وشِقّ النّار[4]، فكان قاطعًا لا يُرتجَى تجاوزُه، وجدارًا فاصلًا لا يُظَنُّ زوالُه.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّهُۥ﴾:

التّأكيدُ على وجودِ بابٍ بالسّور لِلَفْتِ الانتباهِ إليه

جاء تقديمُ الخبر ﴿لَّهُۥ﴾ على المبتدأ ﴿بَابٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ للاهتمامِ به، إذِ المتبادرُ من ذِكْرِ السّور أنّه بناءٌ مُحكَمٌ لا مَنفذَ فيه، فجاء هذا التّقديمُ ليَكْسُرَ هذا التّوقّعَ، ويَلْفِتَ النّظرَ إلى وجودِ بابٍ، فهو تقديمٌ ليس للحَصْر، إذِ الحَصْرُ لا يَليق بهذا المقام[5]، بل لتوكيدِ أنّ في هذا الجدارِ المُحْكَمِ مَنفذًا مَخصوصًا، لا يُفتح إلّا لِمَنِ استحقّه.

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿بَابٌ﴾ مُنكَّرًا:

بابُ الهيبةِ والاختصاصِ والتمييز

في قوله تعالى: ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ أوردَ لفظُ (البابِ) نَكِرةً لإفادة التّعظيم، فهو ليس بابًا عاديًّا، بل هو بابُ الهَيبة والتّمييز، موكَّلٌ به حَجَبةٌ لا يفتحونَهُ إلّا بإذنٍ خاصٍّ من الله، ولا يُؤذَن بالدّخول إلّا لِمَن شاء الله من المؤمنين، ممّن استضاء بنوره، واهتدى به، واصطُفي

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 106.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 839.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 210.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 476.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 452.

للشّفاعة أو غيرِها من أبواب الرّحمة[1]، فهو باب لا يُطرق بالعزم، بل يُفتح بالاصطفاء.

دلالةُ التّنصيصِ على وجودِ بابٍ في السّورِ:

يـرى المنافقون نعيمَ أهلِ الجنّةِ من البابِ فتزدادُ حسرتُهم

جاء ذِكْرُ ﴿بَابٌ﴾ في السّور ليحتملَ أن يكون بابًا يُفتح من جهة النّار إلى الجنّة، لا للدّخول، بل ليكونَ مَنفذًا للرّؤية المُؤلِمة، فيُطِلُّ أهلُ الشّقاءِ على ما فاتهم من النّعيم، فترتسمُ أمامَهم مشاهدُ النّور والرّضوان، وهم في ظلماتِ العذاب والهَوان؛ ليكونَ ذلك أبلغَ في التّحسير، وأشدَّ في الإيلام[2]، إذ ليس أعظمَ من عذابٍ يُضاعفُه النّظرُ إلى نعيمٍ لا يُنال. ويجوز أن يكون هذا البابُ للمُتأخِّرين في دخول الجنّة، ومخرجِ النّجاة لِمَنْ لم تُغلق دونه الرّحمة؛ فهو ليس لعامَّة العابرين، بل هو مُعدٌّ لِمَن تخلّف من أهل السّلامة في الموقف، أولئك الذين لم يدخلوا الجنّةَ بعدُ، ولم يلحقوا برَكْبِ السّابقين من المؤمنين، أبطأ بهم العملُ، لكن لم يخرجوا عن طريق النّجاة، فقد فتح لهم هذا البابَ، فدخلوا منه، واستقبلتهم أرواحُ الرّحمة، ونسماتُ الرّضوان[3].

التّعبيرُ ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ دون (بسورٍ فيه بابٌ):

طـريـقٌ واحـدٌ، إمّـا الأمـنُ وإمّـا الهلاكُ

جاء التّعبيرُ ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ بدلًا من (فيه بابٌ)؛ لأنّ الباب هنا كنايةٌ عن الطّريق والسّبيل، فليس المقصودُ مجرّدَ الفتحةِ الحِسّيَّة؛ بل هو رمزٌ لسبيل النّجاة والرّحمة؛ مَن سلكه أدّاه إلى مأمنه، ومَن دار خارجَه لم يجد إلّا الهَلَكةَ والعذاب[4]. ويجوز أن يكون ورودُ هذا التّعبير؛ لما فيه من دِقّةٍ في التّصوير، وبلاغةٍ في الإيحاء؛ لإفادةِ التّملّك والاختصاص، وكأنّ هذا البابَ مُعَدٌّ خصيصًا لهذا السّور، لا يُفتح إلّا بالإذن، ولا يولج إلّا لِمَن كُتِب له الدّخول.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 522، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 384.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 761.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 521.

بلاغةُ التّمثيلِ في قولِهِ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ الآية:

سـورُ الأعـمـالِ حاجزُ المصيرِ بينَ نعيمٍ موصولٍ وجحيمٍ مفصولٍ

تظهر بلاغةُ التّمثيلِ في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ في تصوير هذا المشهدِ وتمثيلِه تمثيلًا بليغًا لحقيقة الفاصل بين الفريقيْن، إذ هو الأعمالُ في الدّنيا، فهي التي ترسُمُ حدودَ المصيرِ، فمنها ما يُفضي إلى الجنّة، ومنها ما يُردي في الجحيم، فكان أحدُ جانبي السّور مثالًا للعملِ الصّالح وعاقبتِه، والجانبُ الآخر لضِدّه، وهو مثالٌ للعمل الطّالحِ ومآلِه[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾:

حاجزُ الظُّلمةِ تصويرٌ تمثيليٌّ لانقطاعِ المنافقين عن نورِ الهُدى

قولُهُ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ فيها تصويرُ حالِ المنافقين، وقد انقطعت صلتُهم بالمؤمنين، فحيلَ بينَهم وبين نورِهم، كمَن ضُرِبَ بينَه وبينَ النّورِ بسورٍ عظيمٍ يَحْجُب كلَّ نورٍ[2]، فحُجِب عن الهدى، وانغمس في الظّلمة.

حكمةُ ضَرْبِ السّورِ للمنافقين كما وردَ في الآيةِ:

الخيبةُ بعدَ الطّمعِ أعظمُ وجَعًا وأشدُّ حَسْرةً

حكمةُ ضَرْبِ السّورِ بينَ المنافقين والمؤمنين تَكْمُنُ في أنّ الخَيبةَ بعد الطّمع أعظمُ وجعًا، وأشدُّ حَسْرةً، إذ أُحْبِطَ أملُهم، وتحقّقَ ما كانوا يخافونه، إنّها عقوبةُ اللّهِ لهم على استهزائهم بالمؤمنين وسخريتِهم منهم، كما وصفهم تعالى في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التّوبة: 79][3]؛ فكان ضَرْبُ السّورِ رَمزًا حيًّا لهذا الاستهزاءِ المكبوت، وفصلًا بين النّور والظّلام. ويجوز أن تكون الحِكمةُ من ضَرْبِ السّورِ تصويرًا لحاجزٍ فاصلٍ لا يُرْتَقى، يفصل بين فريقيْن كانت بينهما في الدّنيا ملامحُ الاشتراك، فجاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 383.
(2) صافي، الجدول: 14/ 147.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 383.

السّورُ رمزًا لحَسْم المصيرِ، وإعلانًا بامتناع الرّجوع[1]، إذ لا دُنيا بعدَ اليوم، ولا فرصةَ ثانية بعد الغرور؛ فهو سورُ الفَصْلِ الأبديّ الذي يُغْلَق به بابُ التّدارك إلى الأبد.

دلالةُ تعدُّدِ الضّمائرِ في قولِهِ: ﴿لَّهُۥ﴾ ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾:

تجسيدٌ لوَحْدَةِ السّورِ وعُمْقِهِ

تعدُّدُ الضّمائرِ في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يُجسِّدُ وحدةَ السّورِ وعُمقَه الدّلاليّ، إذ تُشير الضّمائرُ كلُّها إلى السّور[2]، فتُبرزُ جوانبَهُ المختلفةَ؛ الباطنَ الرّحمانيَّ الذي يَفيض بالرّحمة، والظّاهرَ العذابيَّ الذي يُقيّد ويُحْصِن، ما يعكسُ التّوازنَ الحكيمَ بين الرّأفةِ والجزاءِ في حُكْم اللّهِ تعالى.

بلاغةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿بَاطِنُهُۥ﴾:

التّناسُبُ بين الدّاخلِ النّفسيّ والباطنِ المكانيّ

جاء التّعبيرُ بقولِهِ: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ دون (داخله)؛ لما في لفظِ الباطنِ من عُمقٍ دلاليٍّ؛ إذ لا يقتصر على الحَيّز المكانيّ فحسب، بل يدلّ على ما خَفيَ واستترَ واحتجب عن الأعين، فهو إشارةٌ إلى وجه السّورِ الذي يقابلُ المؤمنين، ويُمثّل ما أُعِدّ لهم من كرامةٍ، وهو في الوقت نفسِه امتدادٌ لبواطنهم المملوءة إيمانًا ورحمةً، وكما كانت صدورُهم تغمرُها الرّحمةُ في الدّنيا، أُفيضت عليهم في الآخرة رحمةٌ تغمرُهم من باطن الجنّة[3]، في تناسُبٍ بديعٍ بين الدّاخل النّفسيّ، والباطن المكانيّ.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ ﴿فِيهِ﴾:

الرّحمةُ مُستقرّةٌ في باطنِ السّورِ لا منفصلةٌ عنه

التّعبيرُ بالظّرفيّة ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ يُفيد معنى العِنديّة؛ أيْ إنّ الرّحمة مستقرّةٌ في باطنه، لا منفصلةٌ عنه، والرّحمة هنا كنايةٌ عن الجنّة ونعيمها[4]، ليتحوّلَ السّورُ من كونه حاجزًا ماديًّا إلى بوّابةٍ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 458.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 384.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 452.

معنويّةٍ تُفْضي إلى مَقرّ الرّحمةِ ودارِ القرار، فمَنْ كان في جانب النّور، كان في حضرة الرّحمة، لا مجرّدَ مواجِهٍ لها.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلرَّحۡمَةُ﴾:

الإشـــارةُ إلى الرّحمةِ المعلومةِ وهي الجنّةُ

جاء لفظُ ﴿ٱلرَّحۡمَةُ﴾ مُعرَّفًا؛ للدّلالة على أنّ المُرادَ بها ليس أيُّ رحمةٍ على الإطلاقِ؛ بل الرّحمةُ المعلومة المعهودة في سياق الوعدِ الإلهيّ، وهي الجنّة[1]، دارُ المؤمنين ومستقرُّ كرامتِهم؛ فلا أعرفَ منها.

دلالةُ تقديمِ الظّرفيةِ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿ٱلرَّحۡمَةُ﴾:

جنّةٌ مخصوصةٌ لأهلِ الإيمانِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بتقديمِ الظّرفيّةِ ﴿فِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾؛ لإفادة الحَصْرِ والاختصاص، وكأنّها حكْرٌ على المؤمنين دونَ غيرهم، وهذا التّقديمُ ينقل المعنى من مجرّد وجودِ الرّحمة إلى ثبوتها واستقرارها في ذلك المكانِ الخاصّ، مُعبّرًا عن كون الجنّة التي هي حقيقةُ الرّحمة منحةً مخصوصةً لا يشترك فيها إلّا أهلُ الإيمان.

سرُّ العطفِ بالواوِ في قولِهِ: ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾:

الـجـمـعُ بـينَ الرّحمةِ الباطنةِ والعذابِ الظّاهرِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ على ما سبق بالواو[2]؛ لأنّها توَحِّد الصِّفتيْن معًا في معنًى شاملٍ يجمع بين الرّحمة الظّاهرة في باطنه، والعذابِ الظّاهر في ظاهره، كما في قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾ [التّحريم: 5][3]، حيثُ يأتي الجمعُ بالواو لتدليل التّعدُّدِ والتّكامل، فلا تنفكّ الصّفتان عن بعضهما؛ بل هما معًا تُكمِلان دلالةَ الباب، وتُجَلّيان التّوازنَ الإلهيَّ في حُكْمِه الحكيم.

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾:

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ باستعمال لفظ (الظاهر) دونَ (الخارج)؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 458.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 463.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 384.

لأنّه لا يدلّ على مَحضّ الخارج المحسوس؛ بل إلى ما يبدو ويُرَى في مقابل ما خفيَ واستتر، وهذا التّعبيرُ يُطابِق حالَ أهلِ النّفاق الذين قَصَروا أنفسَهم في الدّنيا على حفظِ الظّواهر، وإهمالِ البواطنِ وفسادِها[1]؛ فكان ذلك جزاءً وفاقًا من جنس العمل، فمَنِ انشغلَ بالظّاهر دونَ الباطنِ، لم يُؤتَ إلّا ظاهره، وفي ظاهرِهِ العذابُ.

مَن حفظَ ظاهرَهُ وخَسِرَ باطنَه؛ كان له من العذابِ ظاهرُهُ

بلاغةُ الطّباقِ بين قوله: ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ و﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾:

تتجلّى بلاغةُ الطّباق في مقابلتها الدّقيقةِ بين ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ و﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾[2]، حيثُ طابق سبحانه بين ما هو ظاهرٌ وبادٍ، وبين ما هو مُستترٌ وخَفيٌّ، فكان قولُه: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ كجهة المؤمنين الخفيّة التي تحمل في طيّاتها النّعمةَ واللّطفَ، مقابلَ ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ كجهة المنافقين الظّاهرة التي يكتنفها العذاب، ويظهر بذلك الفرقُ الجوهريّ بين المظاهر والحقائق، كما في قوله: من ظاهر مدينة كذا[3]، حيثُ يُراد بالمظهر الظّاهر البادي الذي يمكن ملاحظتُه، ليَبرزَ التّناقضُ بين الظّاهرِ والباطن، وبينَ الرّحمةِ والعذاب. وممّا يُذْكَر في بلاغة الطّباق بين ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ و﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ وجودُ مقابلةٍ لطيفة[4]، تُظْهِر التّباينَ العميقَ بين حال الفريقيْن، فباطِنُه موطنُ الرّحمةِ والطّمأنينة، وظاهرُه موضعُ العذابِ والخُذلان، وتُضفي على المشهد إيحاءً معنويًّا يرفعُ من شأن المؤمنين، ويدلُّ على رِفعتِهم وخصوصيّتِهم، في مقابل ما يلحق بالمنافقين من مهانةٍ وسقوطٍ، لاسيّما في هذا الموقفِ العَصيب[5].

الرّحمةُ والعذابُ بيانٌ للتّناقض الجوهريّ بين المظاهر والحقائقِ

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن قِبَلِهِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ جاء التّعبير بـ﴿مِن﴾

بُعْدُ العذابِ عن السّور صيانةً للمؤمنين من الفَزَعِ والغرورِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.
(2) صافي، الجدول: 14/ 147.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 263.
(4) محمّد علي، مختصر التفسير: 3/ 313.
(5) مجموعة مؤلّفين، التّفسير الوسيط: 9/ 1289.

للدّلالة على البُعد والانفصال، إذ يوحي بأنّ العذاب يأتي من جهةٍ بعيدةٍ عن السّور، وهي جهةُ المنافقين، لا من داخل السّور أو قُربه، فيكون في ذلك طمأنةٌ للمؤمنين، فلا يُفزِعُهم شيءٌ من ذلك العذاب[1]، فجاءت لتصوير المشهد بوضوحٍ؛ فالرّحمة في الدّاخل، والعذاب هناك في الجهة الأخرى. ويجوز أن تكون ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ دالّةً على الابتداء[2]، أيّ إنّ العذاب يبدأ ويتفجَّر من تلك الجهة، جهةِ الظّاهر المواجهةِ للمنافقين، وكأنّ العذاب لا يأتيهم من بعيد؛ بل ينشأ من أمامهم مباشرةً، من حيثُ يتوجّهون وينظرون.

التّعبيرُ بـ﴿قِبَلِهِ﴾ دون (جِهَته):

المواجهةُ المباشرةُ والانكشافُ المُريعُ

في اختيار ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ دون (من جهته) بلاغةٌ في التّصويرِ الزّمنيِّ والمكانيّ معًا، فهي تُفيد المواجهةَ المباشرة والانكشافَ المُريعَ، وكأنّ العذابَ لا يأتي من جانبٍ فحسب؛ بل يستقبلهم مواجهةً لا مهربَ منه، فيكون حاضرًا أمامَهم قبلَ دخولهم، باديًا لهم وهم يُقْبِلون عليه، لا يفصلهم عنه سوى السّور، أمّا جهتُه فتدلّ على جهةٍ عامّةٍ دونَ هذا الإيحاءِ القويّ بالاقترابِ والمُجابهةِ.

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ ﴿مِن قِبَلِهِ﴾:

توجيهُ الانتباهِ إلى الجهةِ المرُوّعةِ

جاء تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾؛ لإبراز الفَزَع الكامِن في مصدرِ العذاب، وتوجيهِ الانتباهِ إلى الجهةِ المُرَوِّعةِ التي يُستقبل منها؛ فليس العذابُ مجرّدَ حالٍ يكتنفهم؛ بل هو قادمٌ من أمامهم في وجوههم مباشرةً، وهو يُعجّل بتصوير الهجوم المفاجئ، قبل أن يُفصِحَ عن حقيقته، فيكون للتّرتيب أثرٌ نفسيٌّ في تصعيد الإحساس بالخطر القادم من الأمام، لا من الأطراف أو الخَلْف.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 161.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 452.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ عن جهنّم:

تجسيدُ العذابِ المُستمرِّ وصورةُ النّارِ الحارقةِ

يأتي التّعبير بـ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ للدّلالة على جهنّم؛ ليُجسِّدَ بأسلوبٍ موجَزٍ وقويٍّ حقيقةَ النّارِ المُؤلمة التي تشتعل فيها، فـ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ هنا هو الحَرْقُ المتّصلُ المُستمرُّ، وهي صفةٌ جوهريّةٌ تُميّز جهنّم باعتبارها دارَ العذابِ التي لا يَفِرّ منها أحدٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان: 65][1].

سِرُّ التّعبيرِ بالإضمارِ دونَ الإظهارِ في فاصلةِ الآيةِ:

إبـــرازُ بـلاغـةِ الإيجازِ والتّوجيهِ

آثَر القرآنُ التّعبيرَ بالإضمارِ دونَ الإظهارِ في قوله تعالى: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾، لما في ذلك من بلاغةِ الإيجازِ والتّوجيهِ، إذ يفتحُ مجالَ الاحتمالِ في مرجعِ الضّميرِ، فيجوز أن يعود على السّور أو الباب[2]، وكأنّ العذابَ والرّحمةَ يتوزّعان على السّور وبابِه، في تَوازٍ مُرْعِبٍ ورحيمٍ، بحسب موقف كلّ فريقٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ دونَ الألمِ أو العقابِ:

ألـــمٌ مستمرٌّ يحملُ الإهانةَ والذّلَّ

استعمل التّعبيرُ القرآنيُّ لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ دون (العقاب) أو (الألم)؛ لما في لفظِ (العذاب) من دلالة على الألم المُتكرّر المُستمرّ الذي يُقصد به الإهانة والإذلال، بخلاف العقاب الذي قد يُفهَم منه الجزاء على الفعل فحسب، ولو لم يكن مؤلِمًا حسّيًّا، وبخلاف الألم الذي قد يقع عَرَضًا أو اضطرارًا دون قصدِ الإيذاء التّامّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنظار والإمهال:

انتـظـارٌ مباشرٌ وإدراكٌ واضحٌ في موقفِ المنافقين

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ عُبِّرَ بلفظ الإنظارِ، ولم يُعبَّر بلفظِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 385.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 346.

الإمهال؛ لأنّ الإنظارَ مُرتبطٌ بالانتظار المباشر والمشاهدةِ الفعليّة التي تشتمل على الانتباه والتّرقُّب، وهو انتظارٌ واضحٌ ومُحدّدٌ يرافقه إدراكٌ لما يُنتَظر، بينما الإمهال يُعدُّ تعبيرًا مُبهمًا لا يدلُّ على ربط الانتظار بحركةٍ بصريّةٍ محدّدةٍ، أو إدراكٍ واضحٍ، فالآيةُ تُصَوّر حالةَ المنافقين وهم يطلبون من المؤمنين أن يسمحوا لهم برؤية نورِهم، وهذا طلبٌ مُرتبطٌ بالحصول على بصيرةٍ واضحةٍ وإدراكٍ ملموسٍ، لذا كان اختيارُ الإنظارِ مناسبًا للدّلالةِ على انتظارٍ مرتبطٍ بالرّؤيةِ والإدراكِ.

النّور والضياء:

في قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ استُعمِل لفظُ (النّور)، ولم يُستعمل مرادفُه (الضّياء)، وهو ما "يتخلّل الهواء من أجزاء النّور فيَبيضّ بذلك...، فالنّور هو الجملة التي يتشعّب منها"[1]، ثمّ فرّق بينهما بدِقّةٍ؛ فالضّياءُ ما كان صدورُه ذاتيًّا، أمّا النّور فهو ما كان مُكتسبًا من غيره، وعلى هذا يُفهم قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5]، فإنّ نور القمرِ مُستفادٌ من ضياءِ الشّمسِ[2]، وهذا المعنى مساوٍ لما في الجملة موضعِ الشّاهد؛ إذ إنّ نور المؤمنين إنّما هو مُكتسبٌ من نور اللّه تعالى، لا من ذواتهم.

النّورُ من غيرِهِ مُستعارٌ، والضّياءُ في ذاتِهِ ساطعٌ

السّور والحِجاب:

استُعمل لفظُ السّور، ولم يُستعمل لفظُ الحجاب في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾؛ لأنّ السّور في أصلِ وضعِهِ اللّغويِّ هو البناءُ الظّاهرُ المحيطُ بالمدينةِ أو الحِصن، فهو حاجزٌ مادّيٌّ عظيمٌ مشهودٌ، يُفرِّق بين داخلٍ وخارجٍ، ويقطعُ الاتّصال بينهما قطعًا تامًّا، بخلافِ الحِجاب الذي يدلّ في الغالب على ساترٍ يحول دونَ الرّؤيةِ

السّورُ حاجزٌ مادّيٌّ بخلافِ الحِجابِ الذي يكونُ مادّيًّا ومعنويًّا

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 332.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 332.

أو الوصول، وقد يكون رقيقًا أو غيرَ محسوس، أو مُجرّدَ مانعٍ بصريٍّ لا حاجزٍ مادّيّ، قد يحصُل بأن يجلس المَرءُ في بيته مُحتجبًا عن مشاهدةِ الآخرين[1]، فالآية الكريمة تُصوِّر موقفًا حسّيًّا جليًّا بين المؤمنين والمنافقين يومَ القيامة، حيثُ يُضرَب بينهم سورٌ له بابٌ، فيُجَسَّد الانفصالُ بحاجزٍ عظيمٍ كالذي يُحيط بالمدن، لا مجرّدَ حجابٍ أو سِترٍ، ليُؤكِّدَ شدَّةَ المباينةِ وانقطاعَ السُّبُلِ بين الفريقيْن، وليتناسبَ مع المشهدِ الهائلِ الذي هُم فيه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 288.

المحتويات

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"